المحاضرة السابعة (7): السرد الفلسفي.

يمكن للسرد أن يعالج موضوعات مختلفة كما أسلفنا، وكلّما تناول موضوعا معيّنا وسِم به، فتسمية "السرد الفلسفي" مثلا توحي بأنّ الموضوع المتناول سردا هو موضوع فلسفي، حيث يعمد الكاتب إلى معالجة أفكار وقضايا وآراء فلسفية في شكل سردي/قصصي مشوّق. وفي هذه المحاضرة سنتوقف عند نموذجين بارزين في هذا المجال هما: قصّة حي بن يقظان لابن طفيل، والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي.

1/ السرد الفلسفي في قصّة "حي بن يقظان":

يعدّ ابن سينا أوّل من ألّف رسالة فلسفية ذات بعد رمزي على الطريقة الصوفية سمّاها "حي بن يقظان". يرمز حيّ إلى العقل الفعّال وهو حيّ دائما، وتوحي عبارة "ابن يقظان" إلى صدور العقل عن القيوم (الله) الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والرّحلة الموصوفة في الرسالة رمزية ترمز إلى طلب الإنسان للمعرفة الخالصة بصحبة رفقته من الحواس حيث يستعين الإنسان بالعقل الفعّال الذي يهديه عن طريق الفلسفة والمنطق.

تأثّر بهذه الرسالة الأديب العربي أبو بكر محمد بن عبد الملك ابن طفيل القيسي (ت 581ه/ 1186م) فكتب قصة أدبية ذات بعد فلسفي سمّاها "حي بن يقظان". لكنّ هذا التأثّر لا ينفي الأصالة في عمل "ابن طفيل"، حيث عدّ كثير من النقاد قصّة "حي بن يقظان" أحسن قصة كتبت في القرون الوسطى لما تشتمل عليه من جوانب نضج قصصي في الشرح والتعليل والإقناع؛ إذ يتعانق السرد بالفلسفة الإشراقية ليكشف عن براعة المؤلف في المزج بين الآراء الفلسفية والقصص الشعبي. في تمثيل رمزي إيحائي. وقد احتفى النقاد والدارسون بهذه القصة إلى درجة أنّ عبد الملك مرتاض اعتبر أنّ قصة حي بن يقظان تمثل عملا روائيا لا ينقصه الشيء الكثير.

تشتمل قصة حي بن يقظان على الخصائص العامة التي تؤهلها لتكون عملا روائيا، حيث تتوافر على الشخوص والحدث والزمان والمكان والحبكة والصراع. إذ يسرد علينا الراوي قصة ممتدة الأحداث من خلال تتبع مراحل حياة "حي" منذ ولادته وقرار أمّه وضعة في تابوت وإلقائه في اليمّ، ثمّ حياته الجديدة مع الظبية التي أرضعته واعتنت به. كما يصوّر الراوي جوانب من حياة أبسال في قومه وفي جزيرة حي. هذا؛ بالإضافة إلى أنّ الحدث لا يجري في مكان واحد إنما يجري في ثلاثة أماكن مختلفة هي: جزيرة حيّ حيث ولد وجزيرة الظبية وجزيرة أسال وقومه. ويتضح هنا أنّ رسم حدود هذه الأماكن يتمّ عن طريق وصف الراوي لها أو عن طريق وصف الشخصيات لها(حيّ وأسال) من خلال المشاهدة.

لقد عاش "حيّ بن يقظان" في جزيرة خالية من البشر بعيدة عن العلم، لكنّه استطاع عن طريق التأمّل في المخلوقات أن يتعرّف على خالق هذه المخلوقات ومسير الكون وهو الله تعالى. لقد اهتدى عن طريق العقل إلى أفكار كثيرة تتعلّق بالطبيعة وما وراءها، بل توصل إلى ما توصل إليه الفلاسفة الإشراقيون فيما يتعلق بفكرة الفناء في الله عن طريق الوجد والهيام في معناها الصوفي. ولمّا جاء إلى الجزيرة متصوّف يدعى "أسال" علّمه اللغة والشرائع السماوية التي لم يكن يعرف عنها شيئا؛ ليدرك حيّ أنّ ما توصل إليه بالتأمل لا

يتناقض مع ما ورثه أبسال عن طريق النبوة/ الشريعة. أي أنّه توصّل إلى حقيقة التوحيد عن طرق الفطرة، ومن ثمّة فلا يوجد تعارض بين العقل والشريعة.

2/ السرد الفلسفي في كتاب الإمتاع والمؤانسة:

نشأ التوحيدي في سياق ثقافي يغلب عليه الطابع الفلسفي حيث كان الفكر الاعتزالي والكلامي مزدهرا، ومن الطبيعي أن يتأثر التوحيدي بهذا التيار الفلسفي أو يسلك نهجا فلسفيا خاصّا به، حيث جمع بين الكتابة الأدبية والفلسفة، وقد وصفه ياقوت الحموي بأنّه "أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء"ولا يجد القارئ لليالي أبي حيان صعوبة في التعرف على الموضوعات الفلسفية وتمييزها عن غيرها. فالمصطلحات الفلسفية مبثوثة في كثير من النصوص نذكر منها: النفس والروح والجوهر والهيولى والعرض والمنطق كما نجد الكاتب يستشهد بأقوال الفلاسفة. ومن أبرز الموضوعات الفلسفية التي تمحور حولها حديث أبي حيّان: النفس والسكينة والرؤيا والجبر والقدر والإرادة والاختيار.

ألّف التوحيدي كتاب الإمتاع والمؤانسة (ما بين سنتي 373 و375ه) بطلب من أبي الوفاء المهندس، وهو محمد بن محمد بن يحي البوزجاني أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة وكان أبو الوفاء صديق التوحيدي من ندماء الوزير "ابن سعدان" الملقب بالعارض. وقدّ قسم التوحيدي كتابه إلى ليال؛ حيث يمتدّ السرد الهادف إلى المعرفة والمتعة عبر أربعين ليلة في بناء شبيه ببناء حكايات ألف ليلة وليلة، وهي خاصية كثيرا ما تتكرر في السرد العربي القديم الذي ارتبط بإطار زماني هو الليل أو ما يعرف بالمسامرات. وإذا كانت شهرزاد تسرد للملك شهريار الحكايات لتنجو من القتل، فإنّ التوحيدي كان يسرد الأحاديث للوزير لينال المكانة والحظوة عند ذوي الجاه والسلطة.

يرتبط السرد في كتاب الإمتاع والمؤانسة بالمجلس الذي يعدّ المقام المنتج للسرد وهو شفاهي بالأساس، حيث ينبثق السرد/ الكلام بطلب من المروى له (المستمع أو المتلقي). فالوزير "ابن سعدان" هو الذي يدعو التوحيدي إلى الكلام، وهو من يحدّد موضوع الحديث وأبو حيان يجيبه؛ فيثير أفكارا ومسائل تلفت اهتمام الوزير فيسأله عنها من جديد، لذلك يستخدم الخطاب صيغا من قبيل: قال لي، سألني قلت له، أجبته وهي صيغ تدلّ على الحوار والتفاعل بين الراوي والمروى له. ومن أمثلة ذلك: قول أبي حيان في مستهل الليلة الثانية: " ثمّ حضرت ليلة أخرى، فقال: أول ما أسألك عنه حديث أبي سليمان المنطقي، كيف كان كلامه فينا وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه بنا، فقد بلغني أنك جاره ومعاشرُه ولصيقه وملازمه... فقلت: والله أيّها الوزير..." وقد لا يحدّد المتلقي(المروى له) الموضوع ويترك المبادرة للراوي المتكلم مثل قوله في مستهل الليلة الثالثة عشرة: " فلما حضرت ليلة أخرى قال: هات. قلت: إنّ الكلام في النفس صعبٌ والباحثون عن غيبها وشهادتها وأثرها وتأثّرها في أطرافٍ متناوحة وللنظر فيهم مجال... وأنا آتي بما أحفظه وأرويه والرأي بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح."

يشكّل مثل هذا القول استهلالا يعلنُ من خلاله الكاتب عن بداية السرد ضمن فضاء محدّد هو مجلس الوزير، إذ لا يمكن للسرد أن يبدأ مباشرة دون سابق إنذار. فمثل تلك العبارات

الاستهلالية تمثّل إعلانا عن بداية السرد. يطلب الوزير من أبي حيان أن يتكلّم/يسرد، وبالمقابل يحرصُ المتكلم على أن يجذب انتباه السامع/ المتلقي عن طريق أسلوب ممتع ومشوّق، فلا يملّ الوزير من الاستماع حتى يتعب في وقت متأخر من اللّيل. وهكذا يتواصل السرد في كلّ ليلة.

وإذا انتهى المجلس (في آخر كل ليلة) يسأله الوزير غالبا أن يأتيه بطرفة من الطرائف أو "ملحة الوداع" كما كان يسمّيها؛ وتكون عادة نادرة لطيفة أو أبياتا رقيقة. ومن أمثلة ذلك قول الوزير في خاتمة الليلة السادسة عشرة: "إنّ الليل قد دنا من فجرِه، هاتِ ملحة الوداع." وفي الليلة الثالثة عشرة يقول الوزير:" قد جرى في حديث النفس أكثر ممّا كان في النفس، وفيه بلاغ إلى وقت، وأظنّ الليل قد تمطى بصلبه وناء بكلكله." فالوزير هو الذي يعلنُ عن بداية السرد من خلال طلبه الحديث، وهو الذي يعلنُ عن نهايته، ليختتم أبو حيان أغلب نصوص لياليه بعبارة ختامية هي "وانصرفت".

يندرج كتاب "الإمتاع والمؤانسة" ضمن ما يسمى بـ "المصنفات الجامعة" وتتجلى أدبية نصوصه في المزج بين خطابات مختلفة التاريخي والأدبي والفلسفي والديني والشعبي ولا تبدو الحدود الفاصلة بينها بصورة واضحة، لكنّ الجامع لها هو جنس السرد، ولئن أثار الكتاب قضايا وموضوعات تتصل بالأدب والفلسفة والحيوان والمجون والأخلاق والطبيعة واللغة والبلاغة والتفسير والفن والغناء والسياسة فإنّ السردَ يظلّ الإطار العام الذي يجمعها.

ورد ذكر كثير من الشخصيات في كتاب الإمتاع والمؤانسة ممن عاصرت أبي حيان ولكن هذه الشخصيات لا تحضر بصورتها الحقيقية لأن الحديث يكون من منظور ذاتي هو منظور الكاتب طبعا ومن أبرز الشخصيات التي تحدّث عنها التوحيدي نذكر: أبو سليمان المنطقي وابن زرعة وابن الخمّار وابن السمح وأبو بكر القومسي وعيسى بن علي.

استطاع التوحيدي من خلال سرد مسامراته مع الوزير أبي عبد الله العارض أن يخلق عالما متخيّلا عن طريق انتقاله من المستوى الشّفاهي إلى المستوى الكتابي، فالشخصيات والأحداث إن شابهت المرجع الواقعي فإنّها تجعل النصّ موسوما بالأدبية، خاصّة وأنّ لغته قد تجاوزت المستوى التواصلي إلى المستوى الأدبي الذي يضطلع بوظيفة جمالية وتأثيرية (الوظيفة الأدبية).

- **قائمة المصادر والمراجع:**

1. أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د/ط، 2011.
2. أسامة اختيار: أنماط السرد القصصي في الأدب الأندلسي، مجلة جامعة دمشق، مجلد 28، ع 1، 2012.
3. عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، 1998.
4. عمر عروة، النثر الفني القديم، أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، الجزائر، د/ط، 2000.
5. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د/ط، 1997.
6. ميساء سليمان الإبراهيم، البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، الهيئة السورية العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، د/ط، 2011.
7. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ ط، د/ ت.